الإعداد الفكري والتربوي للإمام علي (عليه السلام)

الدكتور عبد الجبار شرارة

نستطيع القول بكل تأكيد أنَّ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، قد قامَ بعملية الإعداد الرسالي (التربوي والفكري) لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) منذ صدع بالوحي، وكان صلوات الله عليه يضع الخطوات العملية من أجل بلوغ الغاية المتوخاة من ذلك، وهي تولّي عليّ للمهمة القيادية (الاجتماعية والسياسية) بعده مباشرةً. ويظهر لنا من سير الأحداث، وما تناقلته كتبُ السيرة والتواريخ، وما نقله الرواة الثقات، أنَّ ذلك تمَّ عن طريقين:

الأول: تعهد الرسول القائد (صلى الله عليه وآله) نفسه بكفالة عليّ (عليه السلام) منذ صغره، وتولّي تربيته ورعايته، والحرص البالغ على أن لا يفارقه إلاّ لضرورة.

والثاني: إفراد عليّ (عليه السلام) من بين سائر الصحابة بمقامات وعلوم ومواقف ترتبط بوجود الإسلام وبمستقبله.

فأما أولاً: فإنَّ كتب السيرة والرواية قد تكفلت ببيان تفصيلات وافية في هذا الصدد، حتى أن أمر تعهد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) لعلي بكفالته منذ صغره، وتربيته في بيته من أوضح ما تزخر به سيرته الشريفة(١)، ويكفي أن نوردَ ما بيّنه الإمام عليّ (عليه السلام) نفسه في خطبته الشهيرة بالقاصعة إذ يقول: (وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلىالله عليه وآله) بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حِجره وأنا وَلدٌ، يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويُمسُّني جسده، ويُشِمني عَرْفَه. وكان يمضغ الشيء ثمّ يُلقمنيه، وما وجَدَ لي كذبةً في قولٍ، ولا خطلةً في فعلٍ... ولقد كنتُ أتّبعهُ اتّباعَ الفصيل اثرَ أُمِه، يرفع لي في كل يومٍ من أخلاقه عَلَماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاورُ في كل سنةٍ بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيتٌ واحد يومئذ في الإسلام غيرَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخديجةَ وأنا، أرى نور الوحي والرسالة وأشمُّ ريح النبوة...)(٢).

إنَّ هذه الصورة التي ينقلها لنا الإمام عليّ (عليه السلام) نفسه عن كيفية وطريقة التعامل التي كان يتبعها النبي معه، تكشف لنا عن حقيقة وأبعاد الهدف الأعظم من ذلك.

إنَّ هذه التربية المخصوصة لعليّ (عليه السلام)، والرعاية الفائقة، والحرص على أن يكون عليٌّ قريباً جداً من أنوار الوحي، وأن يكون متعرضاً لنفحات النبوة، وأن يكون ثالث ثلاثة في بيت الرسول القائد حيث مهبط الوحي، فيتلقى في هذا المكان المشرف الدروس الأولى، والتوجيهات النبوية المباشرة، فينعكس ذلك على تكوينه الفكري والعقيدي (فلا يسجد لصنم

قط)(٣) ولا يخالط عقله لحظة شرك، وينعكس على سلوكه (فلا كذبة في قول، ولا خطلة في فعل...) إنَّ هذا ليكشف عن إعدادٍ تربوي خاص بلا أدنى شك. ومما يلاحظ في هذا الصدد أن تعهد الرسول القائد (صلى الله عليه وآله) لعليّ بالرعاية والعناية الخاصتين لم يقتصر على فترة الطفولة والصبا، ولم يتوقف عند مرحلةٍ معينة لأننا نجدُ أن الرسول القائد كان حريصاً على أن يكون عليٌّ إلى جانبه دائماً لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، كما ورد عن عليّ (عليه السلام) قال: (كان لي مع النبي (صلى الله عليه وآله) مدخلان، مدخل بالليل، ومدخل بالنهار...)(٤) بل نجد الرسول القائد لا يفارق عليّاً ولا يتركه إلاّ لضرورةٍ تتصل بحفظ حياة الرسول نفسه أو بحفظ الدعوة الإسلامية وحمايتها من أخطار محتملة.

ونذكر على كلّ حالةٍ مثالاً واحداً، لتأكيد المطلب.

أ ـ المورد الأول الذي يتصل بحفظ حياة الرسول القائد نفسه، وهو عندما تركَ رسولُ الله عليّاً ليبيت في فراشه ليلة هجرته(٥) المباركة إلى المدينة، إيهاماً لقريش المترصدين، وإنجاءً لنفسه صلوات الله عليه وآله وسلم من مؤامرتهم لقتله(٦). وقد نزل في ذلك قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ...)(٧) كما ذكره الفخر الرازي(٨).

ب ـ المورد الآخر الذي يتصل بحفظ الرسالة وحمايتها؛ وهو عندما أراد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يخرج إلى بعض مغازيه ـ قيل تبوك ـ ترك علياً في المدينة خليفةً(٩) عنه، لأنَّ ابن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين كان قد تخلف في المدينة، فاقتضى الموقف أن يُترك عليٌّ لمواجهة أي تطور غير محسوب قد يهدد دولة الرسول القائد في المدينة، ذكر الطبري: (أنه لما سارَ رسول الله إلى تبوك تخلّف عنه عبد الله بن أُبيّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، وكان عبد الله بن أُبيّ أخا بني عوف بن الخزرج، وعبد الله بن نَبْتَل أخا بني عمرو بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت أخا بني قينقاع، وكانوا ـ أي المذكورون ـ من عظماء المنافقين، وكانوا ممن يكيد الإسلامَ وأهله.

قال الطبري: وفيهم ـ فيما حَدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن اسحاق، عن عمرو بن عبيد عن الحسن البصري ـ أنزل الله تعالى: (لَقَدِ ابتَغَوُاْ الفِتْنَةَ مِن قَبلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ...)(١٠)... وهنا أدرك المنافقون أنَّ بقاء عليّ في المدينة سيفوّت الفرصة عليهم، قال الطبري في تتمة الخبر: (فأرحف المنافقون بعلي بن أبي طالب، وقالوا: ما خلّفه إلاّ استثقالاً له وتخففاً منه. فلما قال ذلك المنافقون، أخذ عليٌّ سلاحه ثمّ خرج حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو بالجُرف ـ موضع على مسافة من المدينة ـ فقال: يا نبي الله؛ زعم المنافقون أنّك إنما خلفتني؛ أنّك استثقلتني وتخففت مني!! فقال: كذبوا، ولكني إنما خلفتك لما ورائي...

أفلا ترضى أن تكون مني ـ يا عليّ ـ بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيَّ بعدي!!، فرجع عليٌّ إلى المدينة ومضى رسول الله (صلى الله عليه وآله) على سفره)(١١).

وقد نقل البخاري(١٢) ومسلم(١٣) حديث المنزلة هذا، وفي الرواية عن سعد بن أبي وقاص: قال: خلّف رسولُ الله عليّاً ـ في بعض مغازيه ـ في المدينة، فقال عليٌّ: يا رسول الله قد خلفتني مع النساء والصبيان؛ فسمعت رسول الله يقول: (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبوةَ بعدي...)(١٤) ومن الأمور الملفتة للنظر أن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) كان يعبّرُ عن تلهفه وهواجسه عندما يغيب عنه عليٌّ (عليه السلام)، ويتطلع الى رؤيته والاطمئنان عليه، فعن أمّ عطية على ما أخرجه ابن كثير(١٥) وحسّنه، قالت: بعثَ النبيُّ (صلى الله عليه وآله) جيشاً، وفيهم عليٌّ. قالت: فسمعتُ النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: (اللهمَّ لا تمتني حتى تريني عليّاً)(١٦).

ويصلُ الأمر أحياناً إلى أنَّ النبي (صلى الله عليه وآله) عندما يُخصُّ بأكلةٍ لا يطيق أن يأكلها لوحده، ثمّ هو لا يكتفي بان يدعو الله إلى أن يشاركه عليٌّ بتلك الأكلة، بل يجعلها مناسبةً لبيان مقام علي (عليه السلام) ومنزلته، فعن أنس بن مالك قال: (كان عند النبي طيرٌ ـ وفي بعض الروايات طائر مشوي ـ(١٧) فقال (صلى الله عليه وآله): (اللهمّ ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي هذا الطير، فجاء عليٌّ فأكل معه...)(١٨). ومن الملفت للنظر أن بعض الروايات تنقل أن محاولة جرت لصرف عليّ عند مجيئه الى بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد دعوته تلك، ولكنها فشلت بتدخل الرسول نفسه على ما نقله ابن كثير(١٩).

ويستفاد من هذه الرواية ـ كما هو ظاهر ـ أن النبي (صلى الله عليه وآله) أراد أن يُرسّخ ويؤكد أنَّ علياً هو أحب الخلق إلى الله تعالى أيضاً(٢٠).

كل ذلك يدلُّ بما لا يدعُ مجالاً للشك على أنَّ التربية التي خصَّ بها نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) علياً، كانت تهدف الى إعداده وتهيئته لمسؤولية قيادة الدعوة، وليس لمجرد أن يكون أحد أركانها وكوادرها الأساسية. إذ وجدنا الرسول القائد يتعهد جمعاً من صحابته بالتربية والتثقيف والرعاية، ولكن ليس بمثل المستوى والطريقة والأسلوب والعناية التي اتبعت مع عليّ، مما يكشف أن المسؤولية المنوطة بعليّ هي أكبر بكثير من مسؤولية الآخرين.

أما الأسلوب الثاني: وهو افرادُ عليّ، واختصاصه بالعلوم، وخاصةً القرآنية، وبالمواقف الحاسمة في تاريخ الرسول والرسالة، وتثقيفه تثقيفاً مركّزاً بأحكام الشريعة؛ فإنّ هناك شواهد كثيرة، وادلةٌ وفيرةٌ عليه، ومن يراجع كتب الحديث والسيرة والتواريخ(٢١) يظفر بالكثير جداً. ونذكر أمثلةً وشواهد عليه تنشيتاً للمطلب:

لقد تولّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بنفسه، وبأمرٍ إلهي مهمة الإعداد الفكري والعلمي لعليّ، وتزويده دون سواه بالمعرفة القرآنية الشاملة، وبأُصول العلوم وينابيعها، وبالحكمة وآدابها، وبتفهيم أحكام الشريعة حلالها وحرامها.

جاء عن عليّ (عليه السلام) قوله: (علمني رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب ...)(٢٢). وكان عليٌّ (عليه السلام) تارةً يبادر هو بالحصول على المعارف والعلوم والأحكام من الرسول الأعظم، وتارةً يبادر الرسول (صلى الله عليه وآله) نفسه بذلك؛ قال عليٌّ (عليه السلام): (كنت إذا سألتُ النبي (صلى الله عليه وآله) أعطاني، وإذا سكتُّ ابتدأني..)(٢٣). ثمّ قال مرةً: (إنَّ الله وهبَ لي لساناً سؤولاً، وقلباً عقولاً...)(٢٤) وفي حديث طويل تحدث الإمام عليّ (عليه السلام) في هذا الصدد قائلاً: (ما نَزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) آيةٌ إلاّ أقرأنيها وأملاها عليَّ فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا الله لي أن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيتُ آية من كتاب الله تعالى، وعلماً أملاه عليَّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك رسول الله علماً علّمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمرٍ ولا نهي كان أو يكون.. إلاّ علمنيه وحفظته، ولم أنسَ حرفاً واحداً منه...)(٢٥).

وقد أورد السيوطي أن مُعَمر روى عن وهب عن أبي الطفيل قال: شهدتُ عليّاً يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلاّ أحدثكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلمُ أبليلٍ نزلت أم في نهار أم في سهل أم في جبلٍ...)(٢٦).

قال السيوطي: (إنَّ أحداً من الصحابة لم يجرؤ على أن يقول سلوني غير عليّ...)(٢٧).

وكل ما تحدث به عليٌّ، ونقله لنا التاريخ نقلاً أميناً، شهد به أجلاء الصحابة وأقرَّ به علماؤهم وكبارهم؛ فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود أنه قال: (إنَّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرفٌ إلاّ وله ظهرٌ وبطن، وإنَّ عليّ بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن...)(٢٨). وجاء عن ابن عباس أنه قال: (والله لقد أُعطي عليُّ بن أبي طالب تسعة أعشار العلم)(٢٩)، وورد عنه أيضاً قوله: (كنا نتحدث أنَّ النبي (صلى الله عليه وآله) عهد إلى عليّ سبعين عهداً، لم يعهد إلى غيره)(٣٠). وعملياً كان عليٌّ مرجع الصحابة في كل ما يعترضهم من المسائل العلمية والمشاكل الإدارية، والمعضلات القضائية. فلقد ثبتَ عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أنه قال: (لولا عليٌّ لهلك عمر)(٣١)، وأنه كان يقول: (أعوذ بالله من معضلةٍ، ولا أبو حسن لها...)(٣٢)، وثبتَ عنه أنه قال: (أقضانا عليّ...)(٣٣). والقضاء يعني العِلم بكل أحكام الشرع.

الهوامش

١- السيرة النبوية: ابن هشام، ج ١ ص ٢٤٦، تحقيق مصطفى السقا وآخرون.

٢- نهج البلاغة: ضبط الدكتور صبحي الصالح خطبة ١٩٢ ص ٣٠٠ و٣٠١.

٣- مناقب أمير المؤمنين، ج ٢ ص ٥٤٠ حديث رقم ١٠٤٥ عن ابي سعيد الخدري، وراجع الروض الآنف السهيلي ج ٣ ص ١٦ أول من صلى عليّ، الهامش (١) قال: وإليه ذهب سلمان وخباب وجابر وأبو سعيد كذا في الطبراني.

٤- السنن الكبرى: الخصائص، النسائي ج ٥ ص ١٤١ ح ٨٥٠٢.

٥- سيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٩٥. مطبعة الحجازي القاهرة ١٩٣٧.

٦- المصدر السابق.

٧- سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

٨- التفسير الكبير: ج ٥ ص ٢٠٤ ـ نشر دار الكتب العلمية ـ طهران ط ٣.

٩- صحيح الترمذي: ج ٥ ص ٥٩٦ ـ مطبعة دار الفكر ـ تحقيق كمال الحوت.

١٠- سورة التوبة: الآية ٤٨.

١١- تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٨٢ و ١٨٣؛ البداية والنهاية ابن كثير ج ٧ ص ٣٤٠ وما بعدها.

١٢- راجع التاج الجامع للأصول، الشيخ ناصف ج ٣ ص ٣٣٢ قال: رواه الشيخان والترمذي.

١٣- صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٣.

١٤- صحيح الترمذي: ٥ ص ٥٩٦.

١٥- البداية والنهاية: ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٧.

١٦- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الشيخ منصور عليّ ناصف ج ٣ ص ٣٣٤ دار احياء الكتب العربية ـ طبعة باموق استانبول ط ٣، ١٩٦١.

١٧- البداية والنهاية: ج ٧ ص ٣٥١.

١٨- التاج الجامع للأصول: السابق ج ٣ ص ٣٣٦.

١٩- البداية والنهاية: ص ٣٥١ و ٣٥٢.

٢٠- غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ٣٣٦، الهامش(٦). قال عن الحديث (وفيه أنَّ علياً رضي الله عنه أحب الخلق إلى الله تعالى).

٢١- راجع مختصر تاريخ ابن عساكر: لابن منظور ج ١٧ ص ٣٥٦ وما بعدها، ج ١٨ إلى ص ٥١.

٢٢- الارشاد: الشيخ المفيد، رواية عن عبد الله بن مسعود ص ٢٢.

٢٣- التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ٣٣٥، تاريخ الخلفاء السيوطي ص ١٧٠، الصواعق المحرقة ابن حجر ص ١٢٦ و ١٢٧.

٢٤- الاتقان: السيوطي ج ٤ ص ٢٣٤.

٢٥- نهج البلاغة: خطبة ٢١٠ ص ٣٢٥. ضبط الدكتور صبحي الصالح ١١٠، راجع أيضاً بحار الأنوار، المجلسي ج ٩٢ ص ٩٩ طبعة طهران.

٢٦- الاتقان ج ٤ ص ٢٣٣ وراجع طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٣٣٨، الصواعق المحرقة ابن حجر ص ١٢٧.

٢٧- تاريخ الخلفاء ص ١٦٦.

٢٨- نقله في الاتقان، السيوطي ج ٤ ص ٢٣٣.

٢٩- ينابيع المودة: القندوزي، ج ١ ص ٦٨ و ٦٩.

٣٠- حلية الأولياء: ج ١ ص ٦٨ ـ دار الكتب العربية، بيروت ط ٥.

٣١- البداية والنهاية: ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٩، وراجع تاريخ الخلفاء: السيوطي، ص ١٧١.

٣٢- المصدر السابق: ج ٧ ص ٣٧٣، الصواعق المحرقة: لابن حجر ص ١٢٧.

٣٣- الطبقات الكبرى: ابن سعد، ج ٣ ص ٣٣٩ ط ٢ دار الكتب العلمية، بيروت / ١٤٠٨ هجري.